

سلسلة ترجمات الزيتونة (٢٨)
آذار/ مارس ٢٠٠٨

عرض مقال

الهلال الشيعي: الخرافة والواقع

العنوان الأصلي: The “Shi’i Crescent”: Myth and Reality

الكاتب: موشيه ماعوز Moshe Maos

المصدر: مركز سابان لسياسات الشرق الأوسط التابع لمعهد بروكلين Saban Center for Middle East Policy at the Brookline Institute

التاريخ: تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧

* * *

يرى هذا التقرير بأنه على النقيض من الفكرة التي تتحدث عن وجود "هلال شيعي" ينذر بالخطر، أو عن شرق أوسط على وشك أن ينقسم تبعاً للطوائف الإسلامية، يشهد الواقع المشاهد بأن الدول التي تضم سنة وشيعة لن تشهد اضطرابات. والسبب هو وجود خلافات أساسية داخل ا تمعات الشيعية. وفي العديد من الحالات، نجد أن الشيعة أكثر اهتماماً بتغيير حصة تمثيلهم داخل بلدا م منهم بالارتباط بإيران أو ببناء تحالف شيعي. والأهمية المتزايدة للشيعة العرب في العراق تشكل خطراً بقدر ما توفر فرصة لإيران، لأن احتمال دخولهم في منافسة مع إيران على زعامة ا تمعات الشيعية في الخليج العربي لا تقل عن احتمال انضمامهم إلى إيران في تحالف شيعي.

مقدمة الزيتونة:

هذه دراسة أخرى من ضمن دراسات مختلفة صدرت عن مراكز دراسات ذات تأثير على مراكز صناعة القرار في الولايات المتحدة الأمريكية، تصب في خانة النقد المباشر وغير المباشر للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وهي سياسة قائمة على تعظيم جوانب من الخطر الإيراني الذي يتهدد المصالح الأمريكية في المنطقة، والتهويل على دول المنطقة كلها من خطر يهدف إلى تنفيذ مشروع سياسي عقدي للإطاحة بالأنظمة والنظم الاجتماعية القائمة على حد سواء، مما يستدعي سياسة أمريكية سياسياً وعسكرياً من أجل مواجهة "التنين الإيراني" الذي يهدد المنطقة بالانقضاض عليها بأي لحظة. وكغيرها من الدراسات المماثلة، تخطئ هذه الدراسة سياسة الإدارة الأمريكية الحالية، وتبين لها من خلال التحليل المفصل أن وجود الشيعة أعداد كبيرة من الشيعة موزعين على دول المنطقة، لا يعني بالضرورة أن لهم أجندة واحدة متطابقة مع الطموحات السياسية الإيرانية المفترضة. وتبين أيضاً، أن إيران نفسها، هي دولة براغماتية، مها مصالحها السياسية والاستراتيجية أكثر مما يهمها انتشار تجربتها السياسية أو العقدية في المنطقة. وأهمية هذه الدراسة أ ا صادرة عن شخصية إسرائيلية، تراقب عن كثب انعكاسات الصراع الإيراني الأمريكي لما له من تداعيات على الوضع الإسرائيلي.

نص الترجمة

المقدمة

أطلق الملك الأردني عبد الله الثاني، في مقابلة نشر ا الواشنطن بوست، في ٢٠٠٤/١٢/٨ تحذيراً شديداً في تعليقه على الانتخابات العراقية، التي كان من المزمع إجراؤها في ٢٠٠٥/١/٣٠ قال فيه:

"إذا هيمنت الأحزاب أو السياسيون الموالون لإيران على الحكومة العراقية الجديدة، يمكن أن يبرز هلال جديد من حكومات يهيمن عليها الشيعة أو حكومات تمتد من إيران إلى العراق وسوريا ولبنان، تعمل على تغيير توازن القوى التقليدي بين الطائفتين الإسلاميتين الرئيسيتين وتشكل تحديات جديدة لمصالح الولايات المتحدة وحلفائها". وأضاف بأن بروز هلال شيعي جديد سيزعزع استقرار الدول الخليجية التي يشكل الشيعة جزءاً من السكان فيها على الخصوص. وقال: "حتى المملكة العربية السعودية ليست بمنأى عن ذلك. ستكون مشكلة كبيرة. وستؤدي فيما بعد إلى زيادة احتمال اندلاع صراع شيعي سني...".

بعد هذه المقابلة، عبر قادة عرب آخرون عن مخاوف مشا ة، حيث قال الرئيس المصري حسني مبارك لمحطة العربية الفضائية، في ٢٠٠٦/٤/٨ بأن "العراق يملكه الشيعة بالتأكيد... فالشيعة يشكّلون ٦٥% من الشعب العراقي، وهناك مجموعات شيعية كبيرة في كافة هذه الدول، والشيعة موالون لإيران دائماً".

يشهد العراق صراعاً سنياً شيعياً، كما أن هناك أعمال عنف بين الشيعة والسنة بباكستان وأفغانستان. وقد عمل بعض رجال الدين السنة والجهاديون الإرهابيون السنة على زيادة حدة الانقسام السني الشيعي في الشرق الأوسط. ومما زاد من الانطباع بوجود صراع طائفي في الشرق الأوسط انتقاد القادة السعوديين والمصريين والأردنيين لحزب الله الشيعي اللبناني على "تصرفاته غير المسؤولة" ضد إسرائيل في يوليو/ تموز ٢٠٠٦، وهي الأعمال التي تسببت بسلسلة من الضربات الإسرائيلية الموجعة التي استهدفت لبنان.

لكن على الرغم من شبح الصراع الطائفي الإقليمي هذا، فما يثير الدهشة هو مدى احتواء مفاعيل الصراع السني الشيعي في العراق حتى يومنا هذا. وحتى في لبنان، لم تؤد تصرفات حزب الله إلى أية ردات فعل عنيفة معادية للشيعة من قبل السنة أو المسيحيين هناك. وفي الكويت، يناضل الشيعة من أجل التكامل السياسي والاجتماعي على قدم المساواة مع مواطنيهم من العرب السنة.

الخطر الإيراني: إدارة الحكم تتغلب على نشر التشيع

يغيب عن كافة التعليقات التي تتحدث عن رغبة إيران المزعومة في إنشاء "هلال شيعي" يتبع قياد ـا، نـواحي مهمة تتعلق بالسياسة الإيرانية. أولاً، لا يوجد دليل واضح على أن إيران سعت في يوم من الأيام إلى بناء "هلال شيعي" في الشرق الأوسط. ثانياً، حتى في المرحلة الثورية الأكثر حدة، دعت إيران في عهد آية الله الخميني إلى إشـعال ثـورة إسلامية وحدوية تتميز بأ ا إسلامية وخالية من التمييز القومي أو الطائفي، وهي دعوة ليست بالإيرانية ولا بالشيعية.

تؤمن إيران بولاية الفقيه. بديهياً، يتعين أن يكون هذا الفقيه إيرانياً وشيعياً، لكن إيران لم تـصغ هـذا المبـدأ بعبارات طائفية. وأكثر من استهوتهم هذه الفكرة هم الجماعات الدينية الشيعية الراديكالية، وبخاصة في لبنان والعـراق والبحرين. والرافضون لهذا المبدأ الإيراني هم من الشيعة غير الراديكاليين والعلمانيين فضلاً عن أغلب السنة. ورفـضهم نابع من اعتقادهم بأن الثورة الإسلامية وسيلة لتوسيع المصالح الاستراتيجية القومية الإيرانية. وهذا يعني أنه بـرغم أن اعتراضات المسلمين الشرق أوسطيين على هذا المبدأ لها صبغة طائفية، لكن جوهر الخلاف ليس طائفياً.

إن القلق الذي يساور العديد من مبدأ الثورة الإسلامية الإيرانية هو المفتاح لفهم مسألة "الهلال الشيعي"، وهو أن مصالح الدولة هي المهيمنة. فالنظام الإسلامي الإيراني سعى، في حقبة ما بعد الخميني، إلى نشر أيديولوجيته الدينيـة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي؛ بغرض الدفع بالمصالح السياسية الإيرانية وبسبب اعتقاده بصحة هذا المبدأ. وبدلاً من أن تعتبر إيرانُ المجتمعاتِ الشيعية العربية بمثابة "عمود إيراني خامس" في الشرق الأوسط، قدمت إيـران لهـا المـساعدات والرعاية بغرض نشر رسائل الوحدة الإسلامية التي تدعو إليها وصاغت تحالفات استراتيجية مع القوى الشيعية والقوى غير الشيعية. لم يكن المذهب الشيعي القاسم المشترك لهذه التحالفات وهذه الرسائل السياسية وإنما من يوصفون "بأعداء الإسلام" وهم صدام حسين الحاكم في العراق (لغاية سنة ٢٠٠٣) وإسرائيل والولايات المتحدة.

شكلت إيران الإسلامية أول تحالف مهم لها مع سوريا، وهي دولة تديرها طبقة حاكمة علمانية مـن الناحيـة الإيديولوجية، ومع حزب الله بلبنان. غير أن القوة الجامعة لهذا التحالف ليس التشيع وإنما "أعداء الإسلام" المشتركين. والأمر نفسه ينطبق على علاقات إيران مع الشيعة بالعراق. من الواضح أن القادة الإيرانيين مثل آية الله علي خـامنئي والرئيس محمود أحمدي نجاد يريدون توسيع النفوذ الإيراني إن لم يكن رعاية المجتمعات الشيعية بالشرق الأوسـط مـع احتلال شيعة في العراق الأولوية بسبب قربهم من إيران. وستستمر إيران في اسـتخدام تأثيرهـا الـديني ومواردهـا الاقتصادية ومهاراتها السياسية وأجهزتها الاستخبارية وهيبة قدرتها النووية في رفع شأن هذه المجتمعات. لكـن هـدف إيران ليس تقوية إيديولوجيتها ومذهبها وثقافتها ونشرها، وإنما تهدف إلى دعم مصالحها الاستراتيجية الجوهرية وهي: الحد من الهيمنة الأميركية، وتحقيق التوازن مع القوى الإقليمية الأخرى وردعها، ومحاربة إسرائيل وربما السيطرة علـى المصادر النفطية الإقليمية. والعراق يقع في قلب هذه الاستراتيجية لأنه يشكل فرصة وتحدياً لإيران في آن واحد.

الخطر العراقي: البؤرة العربية الشيعية الجديدة

يمثل شيعة العراق الجالية الشيعية الأكثر أهمية في الشرق العربي؛ لأنهم يشكلون غالبية السكان في العراق، وغالبية العرب الشيعة في الخليج العربي. لكن البريطانيين الذين استعمروا العراق سلّموا مقاليد السلطة للأقلية العربية الـسنية، ونصبوا فيصل بن الشريف حسين ملكاً على العراق سنة ١٩٢١. تميز الحكم السني بالقمع والمحاباة، وبقـي التمثيـل الشيعي غير منصف وهو ما حمل السياسيين الشيعة على المطالبة بنصف الحقائب الوزارية في كل وزارة ملكية، وبحصة مشابهة في سائر الدوائر الرسمية. وعقب وفاة الملك فيصل سنة ١٩٣٣، ثارت العشائر الشيعية على الحكومة ولكنـها

تعرضت للقمع على يد الجيش وسلاح الجو العراقي. غير أن هذا التمرد أدى إلى زيادة تمثيل زعماء العشائر الشيعية في البرلمان.

شكل القادة الشيعة، بزعامة محمد باقر الصدر، في سنة ١٩٥٨ تقريباً، حزب الدعوة الإسلامية لمحاربة نظام عبد الكريم قاسم، الذي كان يزعم بأنه موالٍ للشيوعية ومعادٍ لنظام الحكم الإسلامي. وعندما عاد حزب البعث إلى الحكم سنة ١٩٦٨، بذل جهوداً منسقة لتشجيع جماهير الشيعة على الانضمام إلى الحزب. وهكذا ارتفع تمثيل الشيعة في ثلاث مؤسسات حساسة؛ هي مجلس قيادة الثورة، والقيادة الإقليمية والوزارة. لكنهم لم يحظوا بتمثيل منصف في الجيش ولا في الأجهزة الأمنية. وبعد سقوط نظام البعث، أجريت انتخابات حقق فيها الشيعة فوزاً كاسحاً سواء في البرلمان أم في مجالس البلديات حيث سيطرت الأحزاب الشيعية على أحد عشر مجلساً (من أصل ثمانية عشر)، بما في ذلك المجلس البلدي للعاصمة بغداد. وأصبح إبراهيم الجعفري، زعيم حزب الدعوة رئيساً للحكومة المؤقتة. وسنة ٢٠٠٦، تنحى الجعفري وتولى رئاسة الوزارة نوري المالكي وهو أيضاً من حزب الدعوة.

الجناح الغربي "للهلال الشيعي": سوريا ولبنان

يمكن القول بأن "الجناح الغربي" من الهلال الشيعي، أي لبنان وسوريا، أبعد ما يكون عن الارتباط الوثيق بإيران. فعلاقات الشيعة في سوريا مع إيران محدودة وسبباً للإشكاليات، كما أن جوهر تحالف سوريا مع إيران هو الصراع مع إسرائيل. ويمكن أن ينفرط عقد هذا التحالف، الذي يضم حزب الله أيضاً، في حال توصلت سوريا وإسرائيل إلى اتفاقية سلام، أو إذا تم نزع سلاح حزب الله.

العلويون في سوريا: الاتصال الشيعي المُشكِل

على العكس من الشيعة بلبنان، تعرض العلويون في شمال غرب سوريا لقمع وحشي على يد السلطات العثمانية السنية. وعارضت الغالبية السكانية السنية في سوريا بدون انقطاع تقريباً، العلويين منذ أن استوطنوا جبل الناصرية (القريب من اللاذقية) في القرن العاشر. وسنة ١٣٠٥، أصدر الإمام تقي الدين ابن تيمية فتواه التي جاء فيها "هؤلاء الناس الذين يسمون بالناصرية أشد كفراً من اليهود والنصارى. وهم يتظاهرون أمام المسلمين بأنهم شيعة... والمشكلة هي أنهم لا يؤمنون بالله ولا بالنبي". وبالإضافة إلى العداء السني، نظر الشيعة أيضاً إلى العلويين نظرة احتقار، ووصف علماءُ الشيعة العلويين بالغلاة، وبأنهم لا ينتمون إلى مذهب التشيع. وكانت النتيجة أن العلويين شكلوا مجتمعاً فقيراً ومهمشاً اجتماعياً وثقافياً في سوريا، حتى عقد الخمسينيات من القرن الماضي.

تغير وضع العلويين بسوريا بفضل الفرنسيين، فعمدت سلطات الانتداب الفرنسية إلى تحسين أوضاع العلويين ا ة الوطنيين العرب السنة، ومنحوا العلويين حكماً ذاتياً مؤسسين بذلك "الدولة" العلوية سنة،١٩٢٢ وعملوا على تطوير البنية التحتية الاقتصادية في المنطقة العلوية. كما قاموا بتجنيد العديد من شباب الطائفة في فرقة شكلت القطاع الأكثر فاعلية في الجيش السوري المولود حديثاً، وهو ما أعطى نفوذهم السياسي ذراعاً قوية. وسنة ١٩٦٣، استولى

حزب البعث، وهو الهيئة الأيديولوجية الرئيسية للضباط العلويين، على الحكم إثر انقلاب عسكري، وفي وقت لاحق، أصبح حافظ الأسد دكتاتور سوريا.

المشكلة التي واجهها العلويون باستمرار هي كيفية تعريفهم لأنفسهم. ومن أجل التأكيد على تمسكهم بالإسلام، سموا أنفسهم "العلويين المسلمين". كما أقاموا روابط مع العلماء الشيعة اللبنانيين واعتمدوا المذهب الجعفري في مذهبهم القضائي. لكن الطائفة العلوية لم تدعم هذا القرار بالانضواء تحت العباءة الشيعية. وبدلاً من ذلك، آثر العلويون التكامل ضمن أمة عربية. لكن هذه الرغبة في التكامل والأجندة العروبية لغالبية العلويين السوريين وقادتهم فشلت في كسب رضى غالبية السنة السوريين. تلا ذلك شن حملة مناوئة للعلويين بتنظيم مظاهرات معادية للبعث في أواخر الستينات ثم تحولت إلى أعمال عنف بعد التدخل السوري في الحرب الأهلية في لبنان في سنة ١٩٧٦. واندلعت حرب أشبه ما تكون بالحرب الأهلية في سوريا عندما سحق الجيش السوري تمرد الإخوان المسلمين بمدينة حماة سنة ١٩٨٢؛ مما أدى إلى مقتل عشرين ألفاً جلّهم من المدنيين الأبرياء. وبالنظر إلى رفض العرب السنة الذي لا يعرف الهوادة للعلويين، سعت الطائفة إلى كسب ود الشيعة. ففي سنة ١٩٧٣، أصدرت ثماني شخصيات دينية علوية بياناً مشتركاً جاء فيه أن الطائفة العلوية تنتسب إلى الشيعة الإثني عشرية، التي تلتزم بتعاليم علي والقرآن. وفي مستهل الثمانينات، قدمت الجمهورية الإسلامية الإيرانية، المشكّلة حديثاً، الدعم لسوريا؛ مما ترك انطباعاً بأن العلويين من جملة الشيعة. ودعي العديد من رجال الدين الشيعة الإيرانيين واللبنانيين إلى إلقاء محاضرات في القرى العلوية، فيما أُرسل العديد من الشباب العلويين لحضور الاحتفالات الشيعية بإيران.

لا تعتمد استراتيجية البقاء التي يتبعها النظام السوري على الخطاب السياسي، وإنما على السياسة الواقعية. وأقرب الحلفاء إلى سوريا في ذلك هما حزب الله وإيران، والسبب هو المصالح الاستراتيجية المشتركة لا التشيع المزعوم. فكل من الأطراف الثلاثة بحاجة إلى الآخر لإفشال ما ينظر إليه على أنه محاولة أميركية إسرائيلية لإضعاف مركزه، سواء عبر إخراج سوريا من لبنان أو عبر فرض عقوبات على إيران أو تشجيع الحكومة اللبنانية على نزع سلاح حزب الله. وبعد أن أُجبر السوري على مغادرة لبنان في أبريل/ نيسان ٢٠٠٥، تم الإعلان عن تشكيل "جبهة موحدة"، وهي جبهة تعززت بعد التوقيع على الميثاق العسكري الإيراني السوري في يونيو/ حزيران ٢٠٠٦.

يعرف النظام السوري أنه بحاجة إلى توزيع رهاناته، وهذا هو سبب عدم بروز العنصر الشيعي في الهوية السورية لأ ا تنفّر الدول السنية. فدمشق ما تزال بحاجة إلى دول مثل المملكة العربية السعودية وتركيا لمناصر ا، على الرغم من خلافا ا الحادة معهما في الماضي. لكن هذه الروابط مع الدول المعتدلة لا تعني تبني سوريا سياسة معتدلة، ولكنها تسعى من جانبها لكسب غطاء تلك الدول، فضلاً عن كو ا خياراً بديلاً في حال تبين أن تحالفها مع حزب الله ومع إيران باهظ الكلفة. بالنسبة إلى سوريا، مصلحة الدولة دليل أعظم أهمية من دورها المزعوم في "الهلال الشيعي".

التحوّل الفريد للشيعة في لبنان

خاض الشيعة في لبنان تجربة فريدة من نوعها في الشرق الأوسط العربي جعلتهم مختلفين بشكل ملحوظ عن الشيعة الآخرين في المنطقة. فعلى الرغم من معاناتهم التاريخية من التمييز، فهذه المعاناة لم تصل إلى حد الاضطهاد الذي تعرضت له المجتمعات الشيعية الأخرى. فعلى العكس من شيعة العراق، شارك شيعة لبنان باستمرار في السياسة على مدى عدة أجيال، من خلال زعمائهم الإقطاعيين أولاً، ثم من خلال حركتيهم الشعبيتين أمل وحزب الله. ونتيجة لذلك، تحولوا من شريحة سكانية سلبية ومقسمة و"محرومة" إلى مجتمع نشط ومتحرك وواثق بنفسه على الصعيد السياسي. وأضحى لهم تأثير حاسم في مستقبل البلاد ربما كان أعظم من تأثير أي مجتمع آخر.

عامل العثمانيون الشيعة اللبنانيين باحترام فاق احترامهم للشيعة في العراق، وكان لذلك نتائج مهمة على المدى البعيد. فخلال الفترة الممتدة بين القرن السابع عشر والتاسع عشر، لعب العديد من العائلات الشيعية، ونخص بالذكر آل حرفوش، دوراً مهماً في المنطقة المحيطة بمدينة بعلبك في وادي البقاع كجباة للضرائب وكحكّام محليين تابعين للعثمانيين.

تميز شيعة لبنان على مر التاريخ بأنهم كانوا جزءاً من الدولة دائماً، وإن كانوا يحتلون مكانة متدنية، فكانوا أقل شأناً من السنة على غرار الطوائف غير الإسلامية. وفي أيام الانتداب الفرنسي، غير الفرنسيون هذا الاتجاه التاريخي عندما أنشؤوا دولة لبنان الكبير بتشجيع من الموارنة في سنة ١٩٢٠. وقد رفض العديد من الشيعة التركيبة السياسية الجديدة؛ لأنها مثلت الهيمنة المارونية والفرنسية. لكن الفرنسيين استطاعوا استمالتهم إلى جانبهم عبر توزيع مناصب إدارية سياسية على زعمائهم، وعلى الخصوص في المجلس التمثيلي. وعلى العكس من اللبنانيين السنة، دعم أغلب الشيعة الدستور اللبناني للعام ١٩٢٦. ومع استعداد اللبنانيين لرحيل الفرنسيين، اجتمع قادة البلاد في سنة ١٩٤٣ للاتفاق على ترتيبات غير رسمية لتقاسم السلطة، فحصل الشيعة، الذين كانوا يشكلون ما يقارب ٢٠ في المائة من السكان وفقاً لإحصاء العام ١٩٣٢، على منصب رئيس البرلمان وعلى تمثيل يتناسب مع نسبتهم من عدد السكان في البرلمان وفي الإدارة العامة. وعلى الرغم من أن ذلك وضع الشيعة في المرتبة الثالثة بعد الموارنة الذين حصلوا على الرئاسة وبعد السنة الذين حصلوا على رئاسة الوزارة، زادت هذه التركيبة من دور الشيعة في تركيبة السلطة في لبنان.

على الرغم مما تقدم، لم يطرأ تحسن على الوضع الاجتماعي الاقتصادي للشيعة. ولم يأبه الفرنسيون، ومن بعدهم الموارنة والزعماء الإقطاعيون كثيراً لضمان حصول الشيعة على حصة منصفة على صعيد الخدمات الصحية والتعليمية. ومع تغير الاقتصاد اللبناني، نزح العديد من فقراء الشيعة من الريف، وتوجهوا إلى بيروت حيث أصبحوا شريحة مهمشة اقتصادياً هناك. حدث ذلك فيما كانت الطائفة تشهد تغيراً اجتماعياً واقتصادياً سريعاً استدعى وجود قيادة دينامية لم تكن القوى التقليدية قادرة على توفيرها. برزت تلك القيادة أخيراً في الشخصية الكاريزمية للإمام موسى الصدر الذي ولد بمدينة قم الإيرانية، وانتقل إلى لبنان في سنة ١٩٥٩. وأسس في سنة ١٩٦٩ المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وترأسه، واستمر في بناء المؤسسات في سنة ١٩٧٤عندما أسس حركة المحرومين. وفي السنة التالية، بعد أن غرق لبنان في أتون حرب أهلية، أسس ميليشيا خاصة عرفت باسم أفواج المقاومة اللبنانية "أمل". وقد سمحت هذه المؤسسات

للطائفة الشيعية بامتلاك هوية مستقلة عن الوصاية السنية التي مورست على مر التاريخ عليهم. وأسهمت الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩٠)، والتدخل السوري العسكري في لبنان سنة ١٩٧٦، والثورة الإسلامية بإيران سنة ١٩٧٩، والاجتياح الإسرائيلي واحتلال جنوب لبنان (١٩٨٢-٢٠٠٠) إلى حد بعيد في تطرف الشيعة اللبنانية وتعميق إحساسهم بالقدرة على الاعتماد على النفس.

أسس عدد من رجال الدين الشيعة حزب الله سنة ١٩٨٢. قاد الحزب أمانةٌ عامة وهو يتلقّى توجيهاته من مجلس الشورى. وكان الشيخ صبحي الطفيلي أول أمين عام للحزب، خلفه سنة ١٩٩١ عباس الموسوي. وبعد اغتياله على يد إسرائيل في فبراير/ شباط ١٩٩٢، خلفه الشيخ حسن نصر الله، ولا يزال يقود المنظمة من ذلك الحين. بتمتع الحزب بالتنظيم الجيد ودعم إيران، حقق نجاحات عسكرية مهمة ضد إسرائيل والولايات المتحدة. وأدى الدور الذي لعبه الحزب بوصفه القوة العسكرية المقاتلة الأولى في وجه إسرائيل إلى تنامي شعبيته على حساب منافسته حركة أمل العلمانية والأكثر اعتدالاً. وتحولت هذه المنافسة إلى معارك بين الطرفين بين عامي ١٩٨٧ و١٩٨٠ راح ضحيتها مئات الضحايا. وتم التوصل إلى هدنة بفضل وساطة إيرانية وسورية سنة ١٩٩١ وبدا واضحاً أن حزب الله حاز على اليد الطولى.

في أعقاب التوقيع على اتفاق الطائف، زاد التمثيل الشيعي في الحكومة اللبنانية إلى خمس وزارات بعد أن كان لها وزارة وحيدة قبل الحرب. وفي البرلمان، ارتفع عدد النواب الشيعة إلى ٢٧ من أصل ١٢٨ نائباً مقارنة بـ ١٧ نائباً من أصل ٩٩ قبل الطائف.

أظهرت المفاوضات التي سبقت التوصل إلى اتفاقية الطائف أن قدرة حزب الله على التأثير محدودة بفعل تنوع الطائفة الشيعية والموقف السوري. فقد هدفت السياسة السورية إلى المحافظة على قوة الحزب من أجل تحييد الخطر الإسرائيلي، على ألاّ يكون بالغ القوة بحيث يتحول إلى مجموعة طاغية تنفّر السنة في سوريا والبلاد العربية الأخرى. غير أن ما كان يهم إيران هو قدر ا على الاستفادة منه في الصراع مع إسرائيل، وهو ما أوجد درجة من التوتر في التحالف الإيراني السوري فيما يختص بلبنان. وبالتالي تبقى العلاقات بين إيران وحزب الله قوية طالما أن الحزب قادر على المحافظة على قدراته العسكرية. وفي حال تم نزع سلاح الحزب، فقد يعتري الضعف علاقاته مع إيران.

الجناح الشرقي "للهلال الشيعي": الدول الخليجية

يفتقر الجناح الشرقي للهلال الشيعي، الذي يضم الكويت والبحرين وشرق المملكة العربية السعودية، إلى التماسك، وهو أقل تأثراً بالتوجيهات الإيرانية من الجناح الغربي.

الشيعة في الكويت: نحو التكامل الكامل؟

يتميز وضع الشيعة في الكويت بأنه استثنائي بسبب السياسة الليبرالية نسبياً التي تنتهجها عائلة الصباح الحاكمة. يشكل الشيعة حوالي ٣٠ في المائة من الشعب الكويتي، الذي يقل عدده عن مليون نسمة. وحرصت عائلة الصباح على جعل الشيعة الكويتيين على قدم المساواة مع الأغلبية السنية. كما منحت العائلةُ الحاكمة الشيعةَ الحرية الكاملة في

ممارسة شعائرهم الدينية، ووفرت لهم فرصاً اجتماعية واقتصادية مهمة. والنتيجة هي عملية تكامل بارزة يشارك فيها على الخصوص أفراد الشيعة المنتمون إلى الطبقة الموسرة، والتجار من أبناء الطبقة الوسطى، والمهنيون والموظفون العامون. غير أن أقلية من شيعة الكويت تبنت النهج الديني ومبدأ ولاية الفقيه المطبق بإيران بسبب تأثرها بالثورة الإيرانية. وبسبب دعم الكويت للعراق في الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٩)، نظم المسلّحون من هذه الأقلية مظاهرات، وقاموا بأعمال شغب، وعمليات إرهابية استهدفت نظام الصباح والمصالح الغربية بالكويت. وعلى سبيل المثال، قام المسلحون الشيعة، بمساعدة من الشيعة العراقيين واللبنانيين بمحاولة اغتيال الأمير الشيخ جابر الصباح. وردت السلطات باتخاذ تدابير قاسية، واعتقلت عناصر شيعية كويتية وغير كويتية، وأصدرت أحكاماً بالإعدام في حقهم.

شيعة البحرين: العراق بوصفه نموذجاً؟

البحرين هي البلد الوحيد في الخليج العربي الذي يعاني من الاضطرابات بسبب سكانه الشيعة، حيث ما تزال الأغلبية الشيعية تكافح من أجل نيل حصتها من الكعكة السياسية والاقتصادية. فعلى مدى أجيال، تعرضت الغالبية الشيعية لعمليات قمع وحشية على يد آل خليفة السنية الحاكمة بالبحرين، والتي قدمت أصلاً من قطر.

شكلت إيران الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين سنة ١٩٨١، وهي مجموعة من المسلحين البحرينيين الشيعة الذين سعوا إلى إسقاط الأمير وإقامة جمهورية إسلامية. غير أن النظام البحريني سحق المتمردين الشيعة بقسوة، ولعب الورقة الطائفية بتصوير الشيعة عموماً على أ م "طابور خامس" إيراني، بقصد التفريق بين السنة والشيعة. ومع اشتداد الضائقة الاجتماعية والاقتصادية، نظّم العديد من الشيعة انتفاضة بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٨ استخدموا فيها الحجارة. لكن الحكومة نجحت في احتواء أعمال الشغب وعاقبت مرتكبيها بمن فيهم متزعم الحركة، الجمري.

أثبت الغزو الأميركي للعراق سنة ٢٠٠٣ أنه كان نقطة تحول بالنسبة إلى البحرينيين الشيعة. فقد أُعجب العديد من الشيعة غير المسلحين بنموذج القوة الشيعية المتصاعدة بالعراق، وعلى الخصوص الموقف المعتدل وشبه الديموقراطي الذي تبناه السيستاني. لكن يبدو أن البحرينيين السنة أكثر انشغالاً باحتمال خسار م للسلطة منهم بدعم الديموقراطية. كما أن مشاهد العنف الطائفي المتصاعد بين السنة والشيعة في العراق زادت من سوء العلاقة بين الفريقين في البحرين. وفي مشهد يظهر تأثر شيعة البحرين بما يجري في العراق، نظّمت مظاهرات بالبحرين عقب تفجير سامراء شارك فيها أكثر من مائة ألف شخص.

الشيعة في السعودية: زنادقة أم سعوديون؟

عانى الشيعة في شرق السعودية على مدى سنين من العزلة والقمع الوحشي. فغالباً ما قامت السعودية، المتأثرة بشدة بالوهابية، بقمع الشيعة، وعمدت إلى تدمير أضرحتهم وإجبارهم على اعتناق مذهب أهل السنة وحرمتهم من رعاياها ومساعدا ا. يشكل الشيعة الذين يتركزون من الناحية الجغرافية في الأحساء والقطيف ما بين ثلاثة وسبعة في المائة من سكان المملكة البالغ عددهم اثنين وعشرين مليوناً. كان للثورة الإسلامية في إيران وقع كبير على الشيعة السعوديين مما دفع الإسلاميين الشيعة، بقيادة الشيخ حسن الصفار، إلى تنظيم انتفاضة في المقاطعة الشرقية ضد ما سموه

النظام السعودي "غير الشرعي". سحق السعوديون الانتفاضة بلا رحمة. وبعدها، اختفت المعارضة الشيعية السعودية أو ذهبت إلى المنفى، فيما واصلت مجموعة مسلحة صغيرة، حزب الله السعودي، القتال ضد النظام، وهي مجموعة تربطها بإيران علاقات وثيقة. وفي النهاية، تبنى الصفار موقفاً براغماتياً ودافع وأنصاره عن التعددية والديموقراطية وحقوق الإنسان.

الخلاصة

إن ما يحكى عن "هلال شيعي" أقرب للخرافة إلى حد بعيد. ومن خلال دحض هذه الخرافة، يمكن أن تنظر الولايات المتحدة إلى الشيعة في الشرق الأوسط على حقيقتهم: مجتمعات متنوعة تعمل على تقسيمهم بقدر ما تعمل على توحيدهم؛ شركاء محتملين في بعض الأماكن، وأعداء في أماكن أخرى.

تفضل طهران عراقاً موحداً يهيمن عليه الشيعة على أن يكون ضعيفاً. فالعراق المقسم يشكل مزيجاً من الفرص والأخطار تفضل طهران تجنبه على الأرجح. وما يزال من غير الواضح كيف ستتطور العلاقة بين إيران والعراق، لكن النتيجة النهائية قد لا تستهوي إيران.

وجدت الأحزاب والمنظمات الشيعية في الشرق الأوسط العربي في الثورة الإيرانية مصدر إلهام في البداية، وقاموا بمساعدة من الإيرانيين بانتفاضات فاشلة في البحرين والكويت والمملكة العربية السعودية. لكن تلك المقاربة تغيرت إلى حد بعيد والفضل في ذلك يعود إلى التغيرات التي شهد ا السياسة الإيرانية، والاستعداد المتزايد للدول العربية التي يهيمن عليها السنة في الخليج العربي للانفتاح أكثر على سكا ا الشيعة. وبات هناك أعداد متزايدة من الشيعة الذين يفضلون التكامل الاجتماعي والسياسي، ويرفضون ا امات السنة بأ م موالون لإيران. وفي هذا الصدد، حقق الشيعة الكويتيون أعظم النجاحات. وحتى حزب الله اللبناني غير مواقفه بالسعي إلى التكامل، وإن يكن ما يزال يكن رغبة عميقة في الاستحواذ على السلطة المركزية في لبنان، باعتبار أن الشيعة يشكلون الأغلبية فيه.

التحدي الرئيسي الذي يواجه الولايات المتحدة هو دئة الأوضاع في العراق. لكن بصرف النظر عن التطورات الجارية هناك، ينبغي لواشنطن أن تشجع السعودية والبحرين على تبني سياسات ليبرالية تجاه سكا ما من الشيعة وعلى تسهيل تكاملهم في الدولة. وفيما يتعلق في لبنان وسوريا، ربما تكون الولايات المتحدة وإسرائيل قادرتين على إبعاد سوريا عن تحالفها مع إيران وحزب الله. فالحكومة العلوية العملانية السورية دخلت في حلف استراتيجي مع إيران الإسلامية من أجل لجم منافسها العراق ومعادلة عدوها الإسرائيلي. وقد زال أحد هذين العدوين، والعدو الآخر على استعداد للدخول في محادثات سلام. بالدخول مع سوريا في حوار بناء، يصبح من الممكن التوصل إلى اتفاق أميركي سوري حول العراق وإعادة إسرائيل مرتفعات الجولان إلى سوريا في مقابل السلام. وعلى الرغم من أن التوصل إلى ذلك يبدو بعيد الاحتمال في المستقبل المنظور بسبب العداء الأميركي الإسرائيلي لسوريا، وبسبب المشكلة المحلية المتمثلة في كيفية تسويق هذا التوجه الجديد في السياسة في أوساط شعبها، لكنه احتمال يظل قائماً ولا ينبغي تجاهله.